



هناكَ في ذلكَ العالمِ المنسى شعبٌ يتنفسُ تحتَ الظلُمِ والاضطهاد، بلغَ مِنْهُ الجهدُ مبلغه؛ يسلُبُ أحلامَه جبروتُ الطغاة، ويبعدُ آمالَه قمُّ الحكمِ وزبانِيَّتهم، ومعَ ذاكَ الجبرِ المقيدِ ضيقٌ في الحالِ لا يخفى على ذي بال.

ولأنَّ ذلكَ الشعبَ حُرٌّ في تفكيره، حالمٌ في خياله، يَسْعى لما يَسْعى له البشُرُ من حياةٍ عزيزةٍ كريمة، يَتَمَّتُ بها الإنسانُ بصفاتهِ البشريةِ كاملةً غيرَ منقوصَة؛ فكانَ لابدَّ له أن يتعرَّضَ على نواميسِ الطغاةِ وقوانينِهم، ويثيرُ على هذا الجبروتِ الأعمى، ومن ثم يخرجُ من تحتِ عباءةِ الذلِّ والاستبداد، ليضعَ قدميهِ على أولِ طريقِ الحريةِ المخضبِ بالدماء.

فتبدأُ بذلكَ مرحلةً التدافعِ الكونيِّ، ويدورُ صراعٌ عظيمٌ بينَ التأثيرِ الحالِمِ والحاكمِ الظالمِ، يُكثِّرُ فيهِ الأخيرُ عن أنيابِه وينهشُ ذلكَ الجسدَ المعذَّبَ المتعبَ، ويُقتلُ أبناءَ الذينَ آمنوا ويسيي أرضَهُمْ وديارَهُمْ، ويمثلُ بالأحياءِ منهم قبلَ الأمواتِ.

وكأيَّ ثورةٍ للحريةِ يقاتلُ معها وفيها رِبِّيونَ كثیرٌ، فما ونهوا لـما أصابَهم في سبيلِ اللهِ وما ضعفوا وما استكانوا، وإنما احتسبوا الأجرَ عندَ ربِّ العالمينَ سبحانَه، وهم رَغَمَ الجراحِ والآلامِ يقينُهُمْ بأنَّ فرجَ اللهِ آتٍ لا مَحالة، وأنَّ النَّصرَ فوقَ الرؤوسِ ينتظِرُ الأمرَ الإلهيِّ ليعمَّ البلادَ والعبادَ.

ومع كثرةِ الآلامِ والأوجاعِ ينبري لها ثلةٌ من عبادِ اللهِ، صنَّعُهُمُ اللهُ على عينيهِ واصطفاهمُ لخدمةِ عيالِه وعوئلهِ، فهم مفاتيحُ للخيرِ مغاليلُ للشرِّ، كيف لا.. وهم الذينَ كرسُوا حياتَهم لما ينفعُ البشرَ، تراهم كالغيثِ العميمِ في البذرِ والعطاءِ، يؤلمُهم ما يؤلمُ عبادَ اللهِ، وتقضُّ مضاجعهم آهاتُ المعذَّبينَ والجراحِ، وكأنَّ ثقلَ هذه العذاباتِ يعنيهم وحدَهم، فهم يعايشونها بكلِّ تفاصيلها ودقائقها؛ يخوضون الصعابَ ليصلوا لذلكَ المعدَّبِ الحزينِ، فيضمدونُ لهُ الجراحَ ويُسْكُنُونَ لهُ الآلامِ.

فهنا جريحٌ مُدميٌ يفترشُ الأرضَ ولا يقوى على الحراك، ذنبُهُ أنه قد فتحَ فاهَ في عصرِ الصمتِ المقيدِ؛ يقفُ حولَهُ الصحبُ والأحباب؛ ينظرون إليهِ بعيونِ الحسرةِ والآلامِ؛ وعن يمينِهِ وشمالِهِ يتَأوهُ جرحى آخرون؛

ماذا نفعل لهم؟

يطول التفكير كثيراً، ثم يطول؛ وبعدها يأتي الجوابُ الوحيدُ بنقلهم إلى مستشفيات النظام!
إلى مستشفيات النظام؟؟!

نعم أخي؛ فهذه هي الإجابة الوحيدة، ولا ثانية لها، والله غالبٌ على أمره.

ينقل هؤلاء الجرحى المضرّجونَ بدمائهم إلى تلك المستشفيات الكئيبة، راجين معونةً من أقسامٍ في سالف الأيام على علاجهم
مهما صعبت الظروفُ واشتدت الأحوالُ والأحوال.

في المستشفى قد يجد ذلك الإنسانُ - إن ابتسّمت له الأقدار - من يضمّد جراحه ويكتُم خبره، فربانيةُ الحاكم في كلِّ مكانٍ
تبثث عن صيدٍ فريدٍ مثله.

وواجبُ طبيبُ الثورة يتعدّى المهمة اليسيرة بعلاج الجريح إلى تهريبه من محكمة التفتيش المسمّاة اصطلاحاً بـ"المستشفى"
بأسرع ما يمكن، ضمن عمليةٍ أقربُ ما تكونُ للخيال، أبطالها هم بعض أهله وبعض أطباء المستشفى وممرضيها؛ فهذا
يعالجه بسرعةٍ علّه ينقذه من الأسرِ لا من الإصابة، وذلك يثبّط عنه من خلفه من الحراسِ ويشتتهم، وآخرُ يحمله ويهرّب به
على حين غفلة من الناس، إلى أن تتكلّل تلك العملية بالنجاح إن قدرَ لها الله ذلك.

وتتالي الأيام وتتحولُ تلك المستشفيات المظلمة إلى ثكنة عسكرية لا تسمع فيها إلا قرع نعال جنودِ الحاكم وحرسه، الذين
يقفون بالمرصاد لكل جريح ومصاب؛ ومع ازديادِ صلفهم وظلمهم يتلاشى الأملُ بعلاج أي جريحٍ ومساعدة أي إنسان؛
فيتعطلُ المصابُ من المستشفى هو ومن يحاولُ إسعافه من أطباء أو مسعفين، ويودع الجميع في غيابِ السجون؛ وإمعاناً
في الإجرام يُعدم هؤلاء جميعاً، وقد يحرق بعضهم حياً وقد تُمزق أجسادهم ويُمثلُ بهم؛ فلا رادع للنفوسِ المخلصةِ بنظرهم إلا
أعلى درجاتِ الخوفِ والترهيب.

هكذا أغلقت المستشفيات وأوصدت أبوابها لكلِّ مستنشقٍ لعيق الحرية، ولكن مشكلةُ الجرحى لم تحل بل تطورت مراحلها
وعظمَ همها، فالأعدادُ تتضاعفُ والصرخاتُ تتعالى؛ فأصبح التفكيرُ بإسعافِهم خارجَ تلك المنظومة الطبية ولو بأبسطِ
الإمكاناتِ هو الخيارُ البديل.

فأن تحاولَ ذلك.. خير من أن تقفَ تتنظرُ المصيرَ المحتمَ لهؤلاء المستضعفين، بين جريحٍ ينزفُ للموتِ أو أسيِّرٍ مصيرهُ
المعروف.

وهكذا أنشئت تجمعاتٍ طبيةٍ صغيرة، قوامُها بعض أدواتِ الجراحةِ والضمادِ وما خفَ حملُه من أصنافِ الأدوية، على أن
تكون في مكانٍ ما - فوق الأرض أو تحتها - لا تصل إليه أيادي الظالمين.

فكانَت تلك النقاطُ على بساطتها، وضعفَ إمكاناتها، توفرُ لذلكَ المسكينِ الأمانَ والمواساةَ التي لا توفرُها أعقابُ البنادقِ
وسياطُ الجلادين التي يُضرب بها مراراً في مشافي النظام.

فنظرَةٌ حنونةٌ مشفقةٌ من مسعفٍ، تفوقُ أقوى مسكناتِ الألمِ ومهدئاته؛ وعينٌ متعبَةٌ تسهرُ على راحته كافيةٌ لأنْ تُعيدَ له روحَه
المسلوبة.

وبعد كلِّ ذلك يقفُ ذلكَ الطبيبُ المشردُ الملاحقُ لينظرَ بعينِ الرضى والقبول لجريحٍ استطاعَ أن يضمّدَ جراحه ويخفّفَ
آلامه؛ كما ينظرُ بعينٍ تغيبُ من الدمعِ وألمٍ يعتصرُ القلب لجريحٍ سهرَ بجانبه ليلاً طويلاً وهو ينظرُه ليموتَ ويفارقَ الحياة؛ لا
لأنَّ ذلكَ المنظر بديعٌ يسرُ الناظرين، بل لأنَّ جبارةَ الأرضِ لم ييسروا له إجراءَ عمليةٍ جراحيةٍ بسيطةٍ، كانت من الممكنِ أن
تُنقذَ تلكَ الروح البريئة.

ولأنَّ الأفكارَ النيرةَ تتفقُّ من الحاجة، فقد عزمَ ذلكَ الكادرُ الطبي على توسيعِ نقاطِهم الميدانية لتشملَ غرفَ عملياتِ بدائيةٍ،
 تعالجُ بها الجروحُ الخطيرةُ وترَمُّ بها الإصاباتُ الواسعةُ فتُعینُ المصابينَ على تخفيفِ آلامهم.

وبasherت تلك الغرف الجراحية عملها، وأجرت أولى عملياتها الطبية بنجاح غير متوقع؛ وتوالت النجاحات وازدهر العمل، وتنامت الخبرات وتطورت؛ وبفترة وجيزة توسيع تلك الغرف واكتملت ملامحها، لتصل لشيء يُشابه المألف وإن لم يرق بعده؛ إلا أن وجودها في ذاته لا يقل أهمية عن أقوى الإعجازات والفتوحات الطبية بكثير.

ولأن المستشفيات لا تكتمل صفاتها إلا باكتمال شروط الرعاية والعناية، فقد أنشأت غُرف لاستشفاء المرضى وإقامتهم، وكانت الردف العملي لغرف العمليات تلك، تحولت معها تلك التجمعات الطبية الصغيرة لمستشفيات ميدانية استكملت أهم أقسامها وفروعها.

ثم ما لبثت أن توجَّت بمنظومات الإسعاف التي توفر على الجريح مشقة القديم للمستشفى ومخاطر النقل وأخطائه، وزُوِّدت بковادر من المسعفين والمنقذين، الذين كانوا بحق أبطال هذه الحرب ومقداميها.

والآن وبعد السنين الأربع بقليل أصبح لدينا منظومة طبية متكاملة، تفوق المنظومة الطبية للنظام أيام عزه؛ وما زال العمل على تطويرها مستمراً لتشمل مجالات الإحصاء والبحث العلمي، وتدريب الكوادر الجديدة وتأهيلها، وصولاً لسورية مختلفة مما كانت عليه سابقاً، بلْ يبني بسواته أبنائه وعزم أهله ورغبتهم في الحياة.

المصادر: